



## الرسالة الأولى

عزيزي،

إذا استعصى عليك قلبٌ كُفَّ عن وصاله، وإذا تغيَّرَ عليك أحدٌ امنحه نسياناً كأنه لم يكن.

كُتِبَ عليَّ القتالُ وهو جُلُّ لي؛ بهذا أخبرني صديقي الأبوي ذات ليلة، فكلَّمنا اعتليتُ قِمَّةَ الجبلِ تدرجتُ حَبَّةَ السُّكَّرِ عن ظهري وكانت جلمودَ صخرٍ حطَّها السَّيْلُ من عَلٍ.

هنا كانت الحكايةُ تعيدُ نفسها من البداية، كان يا ما كان، ما أسوأ هذا الاستهلالَ الماضيَّ الذي أوقفَ السَّاعةَ فُرابةً سبعينَ عامًا ونيفَ في المشهد. يقول باولو كويلو أيضًا "لا شيء في الدُّنيا خاطئٌ تمامًا؛ حتى "السَّاعةُ المتوقِّفة" تكون صحيحةً مرتين في اليوم" .. فهل كانت ساعتها صحيحة ولو لمرةً واحدة؟ ومتى؟

الحربُ هي الطَّرِيقَةُ الوحيدةُ للشَّيْطَانِ لِيُعَلِّمَنَا الجغرافيا؛ الحربُ وحدها تعلِّمنا أسماءَ المدنِ والشُّوارعِ والأحياءِ وأسماءَ البحارِ والأنهارِ والرِّمَن، أما الأوبئةُ فهي الطَّرِيقَةُ المُثلى لتعلِّمَ فنَّ الحياة، أترى؟ الحربُ/ الوباءُ هما وجهان لفكرةٍ واحدةٍ تسمى الخلود، مَنْ ينجو منهما سيكونُ عليه أن يُحدِّثنا عن سببِ الأوَّلين، تمامًا كما فعل المحارب رقم ٣١٣ الذي نجا بمحضِ المصادفةِ من معركةِ إسبرطةِ الأخيرة.

أتعرف؟ أقطنُ حي شيشلي، كانت شيشلي في التَّاريخِ المنصرمِ مقرًّا للكثيرِ مِنَ الجنسياتِ الأخرى التي سكنتُ إسطنبولَ مثل اليونانيين والأرمن والبلقان، لذا إذا تفحصتَ المعمارَ في منطقة شيشلي جيدًا ستجدُ كمًّا هائلًا مِنَ المباني القديمة ذات الطَّابعِ المختلفِ، وستجدُ أنَّ لكلِّ مكانٍ طابعه المميِّز تبعاً لاختلاف تاريخ ساكنيه القدامى. كان لي نصيبٌ من السَّكنِ في حي كرتولوش موطن التَّاريخِ اليوناني والأرمني بشيشلي، كان فيما مضى يضمُّ مساكنَ اليونانيين والأرمن الخشبية، والتي اندثرتْ معظمها في حريقٍ هائلٍ عام 1929 وبجانب منزلي مقبرةُ الأرمنِ واليونانيين. هنا كانت التَّقطةُ الفاصلةُ بين عالمينِ وحرابينِ وقرنينِ زمانيينِ ما بين القرنِ الثَّاسِعِ عشرِ والعشرين، وفي هذه التَّقطة قُتِلَ وَهَجَرَ أرمنٌ ويونانيون كُثُرٌ، هل في هذا إشارةٌ ما لي؟ لم أعد أفهم علمَ الإشاراتِ يا صديقي، ربما توقَّفَ الرِّمَن



في أسبوعِ التَّرحيلِ، تلكَ التَّقِطَةُ الفاصِلَةُ بينَ عالمينِ وامرأتينِ، ربما هي حياةٌ مُوجَّلةٌ، أو أنَّ العالمَ يخبركَ بأنَّ لك حياةٌ واحدةً، أمَّا المرأةُ الأخرى فهي ناجيةٌ بمحضِ المصادفةِ مِنَ الخيامِ.

تعلَّمتُ مِنَ الانتظارِ مِنَ أَبِي وجدِّي، كانا يعيشانِ على أملٍ واحدٍ: العودَةُ! عاشا على ذاكرةٍ توقَّفت عام ١٩٤٨، أتعرفُ أنَّه العام الذي ولد فيه أبي في خيمةٍ بيضاءٍ صغيرةٍ في قطاعِ غزَّة؟ ربما القنطرة وربما في حيِّ العباسية! جدِّي لم تكنُ تذكرُ غيرَ ولادتهِ وهي في الطَّرِيقِ مِنَ البلادِ إلى المجهولِ! سمته "جهاد" وتوأمه "جواد"، وهذا الجواد مات سريعاً، كان أبي قد سبقه ورسم خطأً ما لحياته. عاش أبي بنصفِ تائهٍ حتى حان موعده.

في الأعوامِ الأخيرةِ للوجودِ الأرمني واليوناني في إسطنبول كان على الصِّفَةِ الأخرى جيوشٌ تُعدُّ جبراً مِنَ الشَّوامِ والمصريين في عام سفر برلك؛ تلكَ الحملةُ التي اقتادت آلافاً من المجنَّدين في الجيشِ العثماني ببلادنا وغابوا هناك ولم يعودوا. كانت النساءُ تعد الكعك في انتظارِ عودتهم التي لم تأتِ بعد، لكنَّ الجراد كان ضيفاً مختلفاً جثم على أرواحنا قُبيل الحرب العالمية الأولى، ثم حلتَّ الإنفلونزا الإسبانية، وبعدها الكوليرا كمحتلين مع عصابات الهجَّانة والأشتيرن حتى أنهكت النساءُ، وهلكَ الأطفالُ والعجائزُ، وتُكَّست أعلامُ الخلافةِ العثمانية ليحلَّ مكانها عهدٌ جديدٌ من دولةٍ أُخرى بُنيت على أشلاءِ أجدادنا في شيشلي، وقبلهم على أجسادِ أقوامٍ أُخرى مِنَ الأرمن واليونانيين والشَّوامِ والمصريين.

ما هذا المصيرِ الغريب؟! حتى اليوم، حين تمرُّ بالأحياءِ في الحيِّ الجديدِ ترى كُلاًّ تلكَ الملامح؛ لا أستطيعُ أن أدقِّقَ النَّظَرَ في ملامحهم فأنا ما أزال عالقةً في شوارعِ وسط البلد وحلوان ومصر الجديدة والإسكندرية وبورسعيد تماماً كما علقت منذ أكثر من ٢٥ عامًا في شوارعِ يافا والثَّاصرة والقُدس وعكَّا وحيفا وغزة، أعرفُ أنَّ كُلاًّ هذا تغيُّرٌ وما يزال يتغيَّر.

\*\*

الرسالة الثانية



عزيزي،

"أحبب من شئت فأبغىك مفارقة"، هذا ما وقعت عليه عيناى منذ أيام.. إنها مقولة للإمام علي.. زلزلت روحي، جعلتني أدخل دوامة جديدة بجانب ما أنا فيه؛ الروح معلقة هناك وجسدي هنا، لا أستطيع راب الصدع، كان النوم والمرض هرباً مثالياً للاستيعاب، وكان بداية التوقف عن انتظارك أمام شاشة الهاتف لتُخبرني بأكثر من "صباح الخير".

توقفت عن شراء الورد منذ أيام، لا أعرف عددها، لكن آخر مرة ذهبت فيها إلى صاحب الورد التركي - هكذا سميته - وجدت دُكانه مغلقاً، ذهبت في اليوم التالي فوجدته مغلقاً أيضاً. في اليوم الثالث توقفت عند الفاترينة الزجاجية تذكرت ابتسامته وهو يحدثني بلغته وأنا أبتسم له وهو يعرف جيداً أنني لا أجيد التركية، ربما تصوّر أنني خرساء لكنه كان يُبني على الأزهار التي أختارها، وحدها زهرة عباد الشمس لم أضمها لباقتي اليومية، لأنها لعاشقين تحاباً فتشابهها؛ ربما خائف أو ربما أُصيب بعدوى الكورونا ولم تحمه الزهور، أتعرف ذلك؟ ربما!

منذ أيام، شاهدت عُراباً يتمشى على مهل في شارع البيت الجديد وعجبت من حيلائه؛ كأنما يُخبرني بروايته القديمة "أجل! لأعلمنكم كيف توارون جثثكم". مضيت لشراء بضع الحاجيات من السوق وكأني لم أنتبه له، في اليوم الثاني جاء مع صحبته ليحتلوا الشارع، وفي اليوم الثالث اعتقدت أنهم جوعى فجئت بحب البرغل وشرته لهم فبدؤوا يأكلون؛ لم أرهم منذ أيام، ربما هم في شارع آخر يندرون القاطنين به بموت قريب! لماذا أحكي لك ذلك؟ فلنعد لحكايتنا.

منذ أيام تجتاحني رغبة في كتابة الرسائل لكن هناك اضطراباً حول ما سأكتبه، تزامن مع رغبة الكتابة فيصُّ كبير من المشاهد التي حدثت في الأيام الأخيرة في القاهرة، المصادفة.. تداعياتها.. الروح.. الأحداث التالية.. الإشارات.. المحنة.. الشوارع الغربية.. الوباء.. اعتلال الروح.. كلُّ تلك الأشياء كانت يقيناً تشير إلى أن شيئاً ما يحدث. كانت لدي رغبة ملحة في قطع التواصل، إنهاء هذا المجهول من المشهد، ليس لأنني لا أريده، وإنما لأنني لا أعرف التعامل معه بحواس ناقصة.

كيف تحبُّ امرأة نجت بمحض المصادفة من كلِّ هذا التعب؟!



أتعرفُ أنّ الحواسنَ الخمسنَ ضروريةٌ للبقاء والاستمرار.. فيما وحدها الحاسة السادسة تملأ الغياب؟! عودتُ نفسي كثيراً قبل الرحيلِ ألا أُصدّق غير حواسي فهي خيرُ دليلٍ على فهم الخريطة البشرية.

في العزلِ كما في البلادِ التي لا تعرفك..

أنصت لموسيقى روحك ..

ربما لن يهلك الموتُ للرقص.

تستيقظُ كلّ صباحٍ على أخبارِ الجائحة يُصاحبك الخوف، ويرافقك غوغل إلى الموت بعيداً في بلادٍ لا تتقن غير لسانها

...

في بلادٍ لا تعرفُ أن تكونَ برداً وسلاماً.

في العزلِ، تبصر أرواحهم المعذبة حين أُجبروا على التهجيرِ القسري إلى بلادِ القرم ...

وحده الوباء كان رفيقهم للبلاد..

وصلتُ إلى مهجري، هرولتُ إلى حائطِ الفيسبوك وكتبْتُ العبارة التالية "في وقتٍ ما يحدثُ شيءٌ ما"، وذيلتها بمقولةٍ لباولوا كويهلو "لا شيء يحدثُ في هذا العالمِ مصادفةً". هواجسي الممتدة من البحر المتوسط إلى البوسفور تُخبرني بعكس ذلك تماماً. تذكرتُ كلمةً قالها لي حبيبٌ ذاتَ نهارٍ وكنتُ قد محتها قسراً "خففي من مساحاتِ هواجسيك شوية".. أو هكذا على ما يبدو، لكنّ ما حدثَ ويحدثُ لم يشِ إلا بامتلاء فراغِ روعي بهواجس جديدة ربما لا تجيد اللغة، لكنّها تجيد السّم!

أتعرفُ أنّ حاسّة السّم لديّ مُعطلةٌ منذ وطئتُ بلاد الأتراك! تركتها في مكانٍ ما احتل روعي، كأني أحتفظ بي هناك، هنا، هناك، وهناك أماكن لم أختزها إنّما كانت تختارني: فلسطين، مصر وتركيا. التاريخ يأبى مفارقتي ويعيدُ الشربط في المشهد. نحنُ الآن على أعتابِ الأعوام الأولى من القرن العشرين في بداياتِ الحرب العالمية الأولى؛ رأيتُنا في



المشهد العبي هذا كُنّا نجلسُ خلفَ بارٍ في مدينتنا تحكي لي عن كلِّ مَنْ مرّوا بكِ وأنا أستمعُ إليكِ جيّدًا، كنتُ أحاولُ أن أبصرَكَ بكلِّ حواسي فتقولُ الأسطورةُ "في زمنٍ ما يحدثُ شيءٌ ما".

بدأ العزلُ يحاصرنا أكثر فأكثر؛ بعد أن كانَ عزلاً ذاتياً صارَ حظرَ تجولٍ. في البداية، تخشى على الآخرين ولكن سرعان ما تحوّل الأمرُ إلى جحيمٍ .. كلُّ شخصٍ لديه جحيمه، أن تعلقَ داخلَ جسمك، تقاوم لايقاف نفسك وتوقّفُ عن القتال، حينها تبدأ بمسيرة الوباء.. تخاف.. تبتعد.. تنعزل.. تتأقلمُ ثم تبدأ القتل. تظل الكوايس الشيء الإنساني المتبقي في زمن العزل.

لم أهتم بالتفاصيل، لم تُعدّ تدهشني الحكايات التي تطلُّ علينا كلما وطئت أقدامنا حكايةً جديدة.

أعلمُ جيّدًا أنّ وراءَ كلِّ حكايةٍ حكايةٌ أخرى، لا يجوزُ أن نروها، نحكي جزءً منها ولكن من زاويةٍ نختارها بعنايةٍ لجذبِ انتباه المتلقّي، إنّها لعبةٌ بريختيةٌ مارسناها كثيرًا في مسرح الجامعة وقبلها في حكايات الجدّات لننام.

كان يشغلني سؤالٌ..

كيف سنلجُ إلى الرواية، وقد كان.

\*\*

### الرسالة الثالثة

صباح الخير، ها نحنُ في الأسبوعِ السادسِ للجائحةِ ولا نزال أحياء، لبعض الوقت. أعرّفُ أنّ الفقدان التدرّجي للأملِ لن يُعجبك.. أطمئنك! ليس الأمرُ كذلك، ولكن في زمنِ العزلِ وانتظار أعداد المصابين والموتى مساء كلِّ ليلةٍ أشبه بالعاصفة، لا تستطيع الهروب منها، تسحبك إليها وتبتلعك حتى لا تستطيع الفكاك منها أو الخروج عليها.

حين ينتهى العزل وينحسرُ الوباء لن تكونَ كما كنتَ من قبلُ، لم تعرف كيف كنت في السابق، وكيف تدبّرت أمرَكَ خلال العزل، وحظر التجول، والحجر الصحي، والمنفى.

# رسائل

في هذه الأيام، يتقلب المزاج كما تتقلب الفصول في اليوم الواحد في هذه البلاد.. تفقد سمعك، شهيتك وتصاب باليباس، ثم تفقد قدرتك على الكلام.. تصاب بحالة هوس هستيري تتابع بشغف اضطرابي كل تفاصيل العزل، تقرأ قصص المصابين والتاجيين بمحض الصدفة، تشاهد وجوههم، تتحسس ملامحهم، تشعر بالأم أمعائهم، تصير أنت هم دون أن تدري.

تشعر ببرودة قاسية تجتاحك فتكسبر لحمك.. ولا تعلم هل تنجو من هذه الظلمة الموحشة وأنت الذي لم تدرك فعلياً كيف ينتهي هذا البلاء؟!

ثقلته هذه التجربة، وأنت بعيد في هذا المنفى الغارق في تفاصيله الكثيرة، جميع من حولك لم يدركوا ما أنت فيه، ولم يعلموا بعد كيف نجو من العاصفة..

كافكا كان يغمرنى بفلسفته طيلة الوقت، تزورني نصوصه الثقيلة، وتُصاحبني في مناماتي. منذ أيام، وأنا أبحث عن كلماته لتعبر بي طلاس ذلك الوجد "لحظة انتهاء العاصفة لن تتذكر كيف تدبرت أمرك لتنجو، ولن تدرك هل انتهت العاصفة أم لا. هناك أمر واحد تتيقن منه: حين تخرج من العاصفة لن تعود نفس الشخص الذي دخلها، لهذا السبب وحده كانت العاصفة."

أن تكون فلسطيني يعني أن تُصاب بشقاء جميل لا تقدر على الفكك منه، أن تصاب بلوثة أمل زائفة، أن تحوّل أي هزيمة كبرت أو صغرت إلى حجارة تتكئ عليها للعودة، أن تُبقي مستوى الموت مُرادفًا لمستوى الحياة، أن تُصاب بهذا القدر الغرائبي الذي يلاحقك كعاصفة صغيرة كلما غيرت اتجاهك لتنجو، تلاحقك، تُرواها مرة بعد أخرى، لكنّها تتبعك؛ قدرًا يشبه لعنتك، تلك اللعنة التي تشبه رقصة مشؤومة مع الموت، لا يهب فجأة أو يأتيك على حين غفلة منك، ليس شيئاً لا يمت لك بصلة إنه أنت، إنه شيء ما بداخلك.

كل ما عليك فعله حين تكون فلسطينياً هو أن تدخل في العاصفة مباشرة، تُغمض عينيك وتسد أذنيك وتسير فيها نحو بلاد لا تعرف من رائحتها غير إسمك، وبعضاً من ملامحك تحملها على ظهرك وسنينك، تمضي نحوها خطوة خطوة، وتفرّد ذراعيك، وتمدّد جسدك فوق صفحة مياهه وتستسلم له.



هناك حيث لا يوجد غير صوت الريح تخور في أوصالك، لا شمس هناك ولا قمر، لا اتجاهات، ولا إحساس بالزمان أو المكان، فقط دوامة من الرمال البيضاء المحببة التي تترك ندوباً على جسدك منذ طفولتك بالمخيم، ندوب تكوّنت من قذيفات صغيرة، من موتٍ كاد يضلّ طريقه إليك، الانفجارات واللحم المتقطع بين عينيك يلوّن نهارك الصغير بروائح الدماء وشظايا العظام التي تراها في مناماتك المتكررة.

أنت تهرب منذ أكثر من أربعين عاماً وهي كل ما تملكه من زمنٍ نحو حيوات أخرى تشمُّ فيها رائحة الأعتياد؛ حيث لا أمل، لا حزن، لا فرح ولا يأس؛ حيواتٍ عاديةٍ كحياة أولئك العاديون جداً.

لا أعرف كيف يبدو أولئك البشر، كيف تكون روائعهم، كيف تصبِح أجسادهم صافيةً من دون خريشاتٍ أو ندوبٍ تستوطن جسدك وروحك.

عليك دوماً أن لا تُخطئ وأنت في العاصفة؛ الخطأ ممنوع! كلُّ خطأ يعني الموت الذي سيقطع اللحم والرؤوس، يعني الدم الذي سيسيل داخل روحك وينزف الجميع، وتتلف أنت ذلك الدم الأحمر الحار بيدك؛ كلُّ خطأ يعني أن تدخل في متاهة العاصفة لا تعرف متى تنجو أو كيف تنجو، ولن تعرف مدى لتوقف تلك الرمال الشديدة السرعة والعتمة، هناك حيث أنت وحدك تقف على مقربةٍ من الحافة تنتظر أن تعبّر معهم، سيعبرون ويتركونك تتلاطمك الأسئلة: من أنا وكيف أعيش حيوات لا تشبهني، وكيف لي أن أصنع عالماً زائفاً من بقاء لا يُحتمل، وحين تنجو من العاصفة لن تعود نفس الشخص، فثمة شيءٌ تغير.

\*\*

## الرسالة الرابعة

عزيزي،

صباح الخير.. أتعلم أنني أفتقد الشمس؟ لذا كلُّ استيقاظ في أي ساعةٍ من النهار يعدُّ صباحاً بالنسبة لي.. هكذا أصنع شمساً خاصةً بي. بالأمس ذهبت إلى منطقة يقطنها المصريون، واشتريت الخبز الأسمر "العيش"، اندهشت من فرط



السَّعادةِ التي كنتُ فيها.. أتعرفُ لماذا يطلقون عليه "العيش"؟ من "العيشة والمعاش وكُلُّ مَنْ قدر في الحياة أنْ يعيشَ عاش"، وتلك إشارةٌ أُخرى.

فجأةً، عادت لي حاسةُ السَّمِ التي فقدتها منذ وطئت قدماي بلاد الأناضول.. غريبٌ هذا الفرح، يُنعشُ الرُّوحَ وبأخذك بعيداً حيثُ البلاد.. والبيوت. أتعرفُ كم مفتاحاً أحتفظ به في حقيبة يدي للبيوت التي سكنتها؟ كُلاًّ مفتاحٍ لا يشبه الآخر، أيقنُ أنْ للمفاتيحِ ذاكرةٌ خاصةٌ مثلنا تماماً.

الحكايات يصنعها طرفانٍ أو عدّة أطراف، أمّا الأسطورة فنصنعها وحدنا، هكذا حدّثني أحد الأصدقاء حين نصحني بأنْ أصنع أسطورتِي. كنتُ أودُّ أنْ أُخبركَ عن أسطورةِ أُمِّي التي وجدتها دون سابق إنذار. أتذكّرها، ربما لم أهدّتك عنها، ولكن في العزلِ تُفتحُ الأبوابُ وصناديق الحكايات. العزلُ ليس كالمنفى. في العزلِ تنتظرُ السَّاعاتُ القليلة التي ترى السَّمسَ، ينخفضُ سقفُ طموحاتك، فقط بقاء يُحتمل.

الوباء والجوع مترادفانٍ يشبه بعضهما بعضاً، وفي الرِّحامِ لا أحد، أما آنَ للشُّوكة أنْ تدخلَ قلبي كُلُّه كي أرى قلبي، وكي أسمعُه وأحسّه.

فكرتُ في أنْ أُخبركَ، في موعدنا القادم، بكُلِّ الحكايات التي مرّت بي، كنتُ سأقصُّ عليك بعضاً من أساطيري، إلا أنْ صوتَ فيروز كان خلفيةً تحيطُ برسالتِي تلك "موعدنا بُكرة.. شو أتأخر بُكرة.. أقولك مش جاي حبيبي".

رأت أُمِّي ذلك الفيديو الذي نشرته على صفحتي وشعرتُ بسعادةٍ لأوّل مرّةٍ منذُ رحيلي. قلت لها على الهاتف "انتظريني قريباً.. أشعُرُ بذلك"، أجابت بصمت "بس يجي سليم"، وسليم هذا حسب رواية أُمِّي "أمير ركب البحر إلى السُّمّال وغاب في الثَّلج"، كيف ولماذا ومتى.. لا تدري، ربما لم يُسعفها الوقت لتنسجَ حكاياتها كاملةً أو حكايةً مفنعةً لسامعيها، ربما لم تهتم لذلك، لكنّها كانت تُعلِّقُ أحلام أطفالها الصُّغار بلعيةٍ جديدةٍ أو فسحةٍ بسيطةٍ أو أكلةٍ بعد أيامٍ من الجوعِ على هذا الشَّخصِ الأسطوري، ربما كانت تريدُ أنْ تتركَ لخيالِ أطفالها أنْ ينسجَ حكايات أميرها المهاجر إلى البعيد. في الحقيقة، علّما ذلك الأمير ألاّ ننتظرُ أحداً، وحين امتلأت حقائق الذاكرة بكُلِّ هذا الفقد المتواصل وهذا البقاء المؤقت تعلّمتُ ألاّ أنتظر، ولكن.. "هناك في مكان ما يوجد شيءٌ ما".. تلك أسطورتِي أنا.





في مقارنة بسيطة نجد أسطورتين نابعتين من المصدر نفسه، وإن اختلفت الصياغة، ثمة شيء ما سيأتي، ثمة شيء ما نتظره ونبنتظرنا.

أخبرني حبيب سابق حين قرر النهاية، بأنني نور مفرط في ضيائه ربما لا يقوى البصر على تحمله فيهرب إلى الظلمة، لم أفهم تلك العبارة ولن أفهمها لأنّ الثور لا يأتي وحيداً بلا منع.. فهو قادمٌ من مكانٍ ما نريده بقوة، ذلك المكان حجرة التول.. يفرش الخيوط الكثيرة الزاهية بالألوان والرسمات، فقط علينا أن نُشمر عن الساقين وندخل المكان كي تتحقق الأسطورة وتمنحنا الحياة.

أعرف أنك تفتش في السطور عن "لماذا؟"، لكنك أنت من أرشدني لـ "كيف"، وأنا لست مهتمة بـ "لماذا" الآن، إنما مهتمّة بسؤالٍ آخر: كيف أصنع أسطورتني طالما أنّ الحكايات مرهونة بأطرافٍ أخرى؟

منذ رحيلي القسري في اليوم الأول وأنا مؤرّقة بهذا القدر وما إن اجتاحتنا فيروس كورونا، صار التاريخ يؤرقني، وبانت كتابة الرسائل ملاذي للبقاء. رسائل مي زيادة لجبران ورسائل بنت الشيمي لأسامة.. أتعرف ما الرّابط بينهما؟ الرّابط هو غريزة البقاء. صارت رسائلي التي أكتبها الآن تمنحني الأمل في الحياة والعودة إلى البلاد.. كان عليّ أن أمرّ حواسي يومياً على الانتظار.

أوقن تماماً بأنّ لقاءً جديداً بترتيبٍ عبثي سيكون مختلفاً جداً عن رسائنا، وأعرف أنّ وجهة الرسائل ستبحر إلى مكانٍ ما، لم ولن يشبه الرّحيل المؤقت. كانت تلك رسائل في المجهول، ربما حُبّرت بعضاً من أحلامي وأساطيري، لا أعرف بالضبط وليس لدي أداة قياس لأفهم ما وراء هذا السّفر الاضطراري.

حقيقةً، أشعر بتوتّرٍ محموم.. لا بل باضطرابٍ خفيّ، فالهربُ إلى ذاكرة الأماكن ربما يعيقُ الاحتمال، لكنّه يمنحني أماناً ولو كان زائفاً.

السّفر في ممّراتٍ ذكرياتك لأزمنةٍ عشتها سابقاً يوجعني. ممّراتٌ من "رھط اللاجئين" في المنافي، ربما لأنّ قلبك به عُصّةٌ من حكايةٍ ما أفرجت عن بعضٍ منها حين تجاذبنا بعض الحكايات عن أنفسينا. أدركتُ شيئاً ما رغم حديثنا اليومي،



كنتُ أنصتُ إليكَ لعلِّي أبصرُك، كان عليّ أن آخذك إلى عالمي وبشكلٍ أناني. كنتُ أمسكُ بيدك وأغرقك بالدَّفء. هل هذا هو الثَّور المفرط الإضاءة الذي يتحمّله البصر أحياناً؟

"يُبصرُك قلبي بكُلِّ الحواس، عيناك وطني وأخشى المنفى والرَّحيل، وتقول الأسطورة "في مكان ما يوجد شيءٌ ما". طوال الأسبوعِ تمرّنتُ على العزْلِ. أعتادُ غيابكَ ورحيلي، لكنّ حضورك كان مُتجلبباً في الأماكن، والأصدقاء، والحكايات، والأساطير، ورسالتك المقتضبة التي شاركني فيها ذلك الدَّفء الذي طالما نصبت لك فحاً به، ويا للعجب! كنتُ أوّل ضحاياه، وصرتُ أنتَ ضرورياً للدهشة وللقرون القادمة.

بعد الليلة الأخيرة وقُبيل اعتقالي ذهبْتُ وحدي إلى بيتي "بيت السّت الكريتلية" في محاولةٍ للاحتماء. أخبرني المرشد الذي يعيشُ البيتَ تماماً مثلي بموتِ السّت الكريتلية بوباء الطّاعون. لم أعرف تلك الحكاية من قبلُ. أخبرني حارسُ البيتِ بأنّها هربت من جزيرة كريت بعد جوعٍ شديدٍ خلفه وباء ما في بلادها واستوطنت مصر، وأحبّت ثم ماتت من فرطِ الغياب. صمتُ، استعدتُ ذلك الحوار القصير بيني وبينَ صديقِ التلج عن كريت والحرملك والمكتب، وبشكلٍ مفرطِ الأنانيّة خشيْتُ أن يزورَ بلاداً أحبّها دوني، وتذكّرتُ أسطورة "بس يجي سليم" لكنّه لم يأتِ فرحلتُ.

هناك سطورٌ ناقصةٌ في الرّسالة.. ذاكُ أنّي لن أحتملَ غيابي القسري، ولأنّي أخشى المنفى والرَّحيل، فتطلُّ الأسطورة التي أجيدُ حياقتها بنفسِي تُبصرُك بدلاً من حكاياتٍ ربما لن تُبهجننا فأنتَ ضروري للحياة وحضورك ضروري للبقاء.

عزيزي.. كن بخير.

\*\*

الكاتب: بيسان عدوان